قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

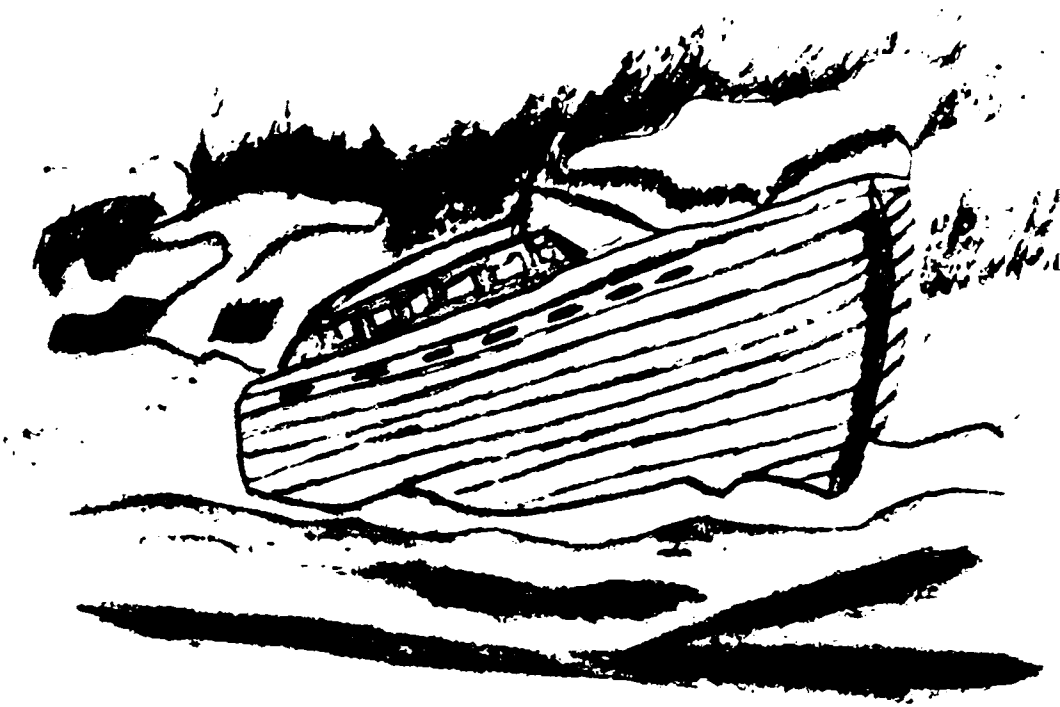

نسبهم

ينتسبون إلى نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ -وهو إدريس- بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كان مولده بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره. وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم، يكون بين مولد نوح وموت آدم مئة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه: أن أبا أمامة قال: إن رجلًا قال: يارسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم مكلم. قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون[1].

موقعهم الجغرافي

قيل في العراق.

صفاتهم

الكبر، واشتهروا بالصناعة.

---

(١). أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٩/١٤ رقم٦١٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٨/٦-٣٥٩ رقم٢٦٦٨)، وقال: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.

حياتهم

ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[1].

ومعنى هذا أن هذه القرون التي تفصل بين آدم ونوح كان أهلها على توحيد الله تعالى وتطبيق شريعته. فلما انتشروا وكثروا، وطال بهم العهد، بدأ الشرك يدب إليهم وينتشر بينهم بسبب الجهل وغياب العلم والغلو في تعظيم الصالحين، فقد ذكر المفسرون في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتفسير قول الله ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون

---

(١). أخرجه الحاكم (٢/٥٩٦ رقم٤٠٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقوّاه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/٨٥٤-٨٥٥)، وقال: وفيه فائدة مهمة؛ وهي أن الناس كانوا في أول عهدهم أمة واحدة على التوحيد الخالص، ثم طرأ عليهم الشرك، خلافًا لقول بعض الفلاسفة والملاحدة: إن الأصل فيهم الشرك، ثم طرأ عليهم التوحيد! ويبطل قولهم هذا الحديثُ وغيرهُ مما هو نصٌّ في نبوة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أدلة أخرى كنت ذكرت بعضها في كتابي تحذير الساجد، فراجعه، فإنه مهم. وانظر: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة (ص٩٠).

أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1].

إن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والأصل في عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ مقابرهم مزارات والصلاة عندها، كما يستفاد من حديث ابن عباس وغيره عند البخاري: «أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا»، التي اتخذها قوم نوح أصنامًا، كانت أسماء رجال صالحين، اتخذ الناس لهم صورًا بعد موتهم، ليستأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، ليجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان: أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور، ويعظمونها، فاعبدوها، فحذر النبي ﷺ من مثل ذلك سدًّا للذريعة المؤدية إليه. وجاء في أحاديث أخرى: أن النهي عن اتخاذ القبور مساجد كان في مرض النبي ﷺ الذي مات فيه. وفي رواية لمسلم: كان قبل أن يتوفى بخمس. وفائدة التنصيص على زمن النهي: الإشارة إلى أنه من الأمر المحكم، الذي لم ينسخ، لكونه صدر في آخر حياته ﷺ، وكأنه ﷺ لما علم بقرب أجله خشي أن يفعل بعض أمته بقبره الشريف ما فعلته اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم، فنهى عن ذلك.

---

(١). أخرجه البخاري (٦/١٦٠ رقم٤٩٢٠)، وانظر: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م (٢٣/٣٠٤).

قال التوربشتي: هو مخرج على الوجهين، أحدهما: كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لهم، وقصد العبادة في ذلك. وثانيهما: أنهم كانوا يتحرون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إلى قبورهم في حالة الصلاة والعبادة لله، نظرًا منهم أن ذلك الصنيع أعظم موقعًا عند الله لاشتماله على الأمرين: العبادة، والمبالغة في تعظيم الأنبياء. وكلا الطريقين غير مرضية، أما الأولى فشرك جلي. وأما الثانية فلما فيها من معنى الإشراك بالله ﷻ وإن كان خفيًّا؛ والدليل على ذم الوجهين قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1]. والوجه الأول: أظهر وأشبه، كذا قال التوربشتي.

وقال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها[2].

فهذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا حزن عليهم قومهم حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وزين لهم أن يصنعوا تماثيل على صورهم، ليتذكروهم بها، ولم يعبدوهم في تلك الفترة،

---

(١). أخرجه مالك (١/١٧٢ رقم٨٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/٢٣٤ رقم٧٥٠).

(٢). الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني: أحمد بن عبدالرحمن بن محمد البنا الساعاتي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية (٨/١٥٦).

فلما انقضى ذلك الجيل، وجاء أحفادهم أوحى إليهم الشيطان: أن أسلافكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم من دون الله تعالى[1].

قال ابن الأثير: قد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح، فمنهم من قال: إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر، وشرب الخمور، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. فلما تمادى قوم نوح على كفرهم، وعصيانهم بعث الله إليهم نوحًا يحذرهم بأسه، ونقمته، ويدعوهم إلى التوبة، والرجوع إلى الحق، والعمل بما أمر الله تعالى، وأُرسل نوح وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال ابن إسحاق وغيره: إن قوم نوح كانوا يبطشون به، فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي لقومي، فإنهم لا يعلمون! حتى إذا تمادوا في معصيتهم، وعظمت منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، اشتد عليه البلاء، فلما طال ذلك عليه، ورأى الأولاد شرًّا من الآباء، قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم، وإن يك غير ذلك فصيرني إلى أن تحكم فيهم. فأوحى إليه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]، فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم، فقال: ﴿وَقَالَ

(١). انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ (٥٢٥/١).

﴿نُّوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، إلى آخر القصة. فلما شكا إلى الله، واستنصره عليهم، أوحى الله إليه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، فأقبل نوح على عمل الفلك، ولها عن دعاء قومه، وجعل يهيئ عتاد الفلك من الخشب، والحديد، والقار، وغيرها مما لا يصلحه سواه، وجعل قومه يمرون به، وهو في عمله فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود:٣٨-٣٩]. قال: ويقولون: يا نوح قد صرت نجارًا بعد النبوة![1].

إن ما جرى لنوح عليه السلام مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. رواه البخاري، وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح،

(١). الكامل في التاريخ: أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني، ابن الأثير، ت: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م (١/٦٢-٦٤).

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وعن عروة بن الزبير أنه قال: ود، ويغوث، ويعوق، وسواع، ونسر، أولاد آدم. وكان ود أكبرهم وأبرهم به. وكان رجلًا مسلمًا، وكان محببًا في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه. قالوا: نعم. فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم، وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالًا مثله، ليكون له في بيته فتذكرونه. قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله، فأقبلوا، فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا، ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم. فكان أول ما عبد غير الله ود الصنم الذي سموه ودًّا.

ومقتضى هذا السياق: أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس، وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة، ليكون أثبت لها، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله ﷻ، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة، يقال لها مارية. فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، قال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله ﷻ»[1].

والمقصود: أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا، فيقول: ربي قد غضب غضبًا شديدًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت. نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا، فيقولون:

(١). أخرجه البخاري (١/٩٤ رقم٤٣٤)، ومسلم (١/٣٧٥ رقم٥٢٨).

يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك ﷻ، فيقول: ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. نفسي نفسي»[1]. وذكر تمام الحديث بطوله، كما أورده البخاري في قصة نوح. فلما بعث الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنمًا، ولا تمثالًا، ولا طاغوتًا، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]. وقال فيه، وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]. أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. ولهذا قال نوح لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]. وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣]. وقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ

(١). أخرجه البخاري (١٣٤/٤ رقم٣٣٤٠)، ومسلم (١٨٤/١ رقم١٩٤).

مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ
قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ
لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ
ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح:٢-١٤]. الآيات الكريمات. فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به. وتوعدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم، وبالغوا في أمرهم، قال الملأ من قومه. أي: السادة الكبراء منهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾
[الأعراف:٦٠-٦١]. أي: لست كما تزعمون من أني ضال، بل على الهدى المستقيم، رسول من رب العالمين، أي: الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾
[الأعراف:٦٢]. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا، أي: فصيحًا ناصحًا أعلم الناس بالله ﷻ. وقالوا له فيما قالوا: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ
لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٢٧]. تعجبوا أن يكون بشرًا

رسولًا، وتنقصوا بمن اتبعه، ورأوهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أقياد الناس، وهم ضعفاؤهم، كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل. وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق. وقولهم: بادي الرأي. أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذي ذموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية، ولا فكر، ولا نظر. بل يجب اتباعه، والانقياد له متى ظهر، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مادحًا الصديق: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم**»(١).

ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضًا سريعة من غير نظر، ولا روية؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه. وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»(٢).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقول كفرة قوم نوح له، ولمن آمن به: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]. أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان، ولا مزية علينا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ

(١). أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٤٥٢/٩ رقم٩٩)، وأبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤٦٩/٣ رقم١٠٧٧).

(٢). أخرجه مسلم (١٨٥٧/٤ رقم٢٣٨٧).

بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٧-٢٨]. وهذا تلطف في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]. وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

وهذا منه يقول لهم: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾، أي النبوة والرسالة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾، أي فلم تفهموها، ولم تهتدوا إليها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾،أي أنغصبكم بها، ونجبركم عليها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨]. أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود:٢٩]. أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله، الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم. وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾[هود:٢٩]، كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك، وقال: إنهم ملاقو ربهم، فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود:٣٠]. ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين: كعمار، وصهيب، وبلال، وخباب، وأشباههم نهاه الله عن ذلك: ﴿ وَلَآ أَقُولُ

﴿لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]. أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به. ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعًا، ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود:٣١]. يعني من أتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١]. أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما قالوا في الموضع الآخر: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

وقد تطاول الزمان، والمجادلة بينه وبينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]. أي: ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم، وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به. ومحاربته، ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه: أن لا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧]. ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:٣٢-٣٣]. أي: من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو

الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦].

وهذه تعزية لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، وتسلية له عما كان منهم إليه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]. أي: لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب، والنبأ عجيب ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦].

وذلك أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما يئس من صلاحهم، وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته، ومخالفته، وتكذيبه بكل طريق من فعال، ومقال دعا عليهم دعوة غضب لله، فلبى الله دعوته وأجاب طلبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [الصافات:٧٥-٧٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٢٦]. وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٥-٢٧]. أي يستهزئون به استبعادًا لوقوع ما توعدهم به، قال: ﴿وَيَصْنَعُ

﴿ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨]. أي: نحن الذين نسخر منكم، ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم، وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[هود:٣٩]. وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا. وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم من الله رسول، كما قال البخاري: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمته فيقول الله ﷻ: هل بلغت. فيقول: نعم. أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم. فيقولون: لا ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته. فتشهد أنه قد بلغ». وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣][1].

والوسط: العدل، فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به. وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به. ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه. وهكذا شأن جميع الرسل حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم، حذرًا عليهم وشفقة ورحمة بهم، كما قال البخاري: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني

(١). أخرجه البخاري (١٣٤/٤ رقم٣٣٣٩).

لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»[1].

وهذا الحديث في الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا، ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول: إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه»[2][3].

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم التويجري: وقد أرسل الله نوحًا إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فطغوا، وتمردوا واستكبروا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

وقد دعا نوح قومه ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]. ولكن قوم نوح لم يستجيبوا

(١). أخرجه البخاري (٩/٦٠ رقم٧١٢٧).

(٢). أخرجه البخاري (٤/١٣٤ رقم٣٣٣٨)، ومسلم (٤/٢٢٥٠ رقم٢٩٣٦).

(٣). انظر: البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، (١/٢٤٧-٢٥٨).

له، ولم ينتفعوا بنصحه، بل أنكر أشرافهم نبوته، واتهموه بالكذب، وقالوا: إن أتباعه من الفقراء والضعفاء، الذين لا فكر لهم ولا رؤية. قال تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [هود:٢٧]. واستمر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوة قومه، وتلطف بهم، ودعاهم في كل مناسبة ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فما آمن معه إلا قليل، أما الأكثرون فقد كذبوه، وسخروا منه، واتهموه بالجنون، وحالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه، وهددوه بالرجم إن لم ينته: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦]. ولكن نوح لم يبال بتهديدهم، فواصل دعوته لهم، حتى إذا ضاق ذرعًا باستكبارهم، واستهزائهم لجأ إلى ربه بهذه الشكوى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح:٥-١٢]. فلما أيس نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من إيمان قومه، وهددوه بالقتل وآذوه ومن آمن معه، فما كان منه إلا أن دعا عليهم، بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [نوح:٢٦-٢٧]. وقد استجاب الله دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقضى بهلاك قوم نوح بالغرق، وأمره أن يصنع سفينة النجاة، ليركب فيها والمؤمنون معه: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود:٣٦-٣٧].

ولما أتم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ صنع السفينة، وظهرت علامات بدء العذاب بتفجير العيون من الأرض، ونزول الماء من السماء، أمر الله نوحًا بأن يحمل فيها من الأحياء والحيوانات زوجين اثنين: ذكرًا وأنثى، ليبقى ويستمر نسلها، كما أمره الله أن يحمل معه أهله، ما عدا من كفر منهم، وهم إحدى زوجاته وأحد أبنائه، كما أمر الله أيضًا أن يحمل معه المؤمنين به، وهم قليل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود:٤٠-٤٣].

ثم أخذت نوحًا عاطفة الشفقة على ولده، فطلب من ربه أن ينجيه من الهلاك: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦].

ولما أهلك الله الكفار بالغرق أمر الله الأرض أن تبلع الماء، وأمر السماء أن تكف عن المطر، فاستوت السفينة راسية على جبل الجودي بالموصل، وقضي الأمر، وأُهلك الظالمون: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ

وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤]. وبعد أن استوت السفينة على الجبل، أمر الله نوحًا أن ينزل ومن معه محفوفًا بالسلام والبركات: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [هود:٤٨].

وهكذا نصر الله نوحًا والمؤمنين معه، وأهلك من كفر به، وجعلهم عبرة للناس: ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧]، ثم جعل الله في ذرية نوح وإبراهيم عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ النبوة والكتاب، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٦][(١)].

العبر والعظات المستفادة

قصة نوح من أكثر القصص التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم، لأنها تحمل العديد من العبر والدروس، التي يستفاد منها، وبالأخص الداعون إلى الله، ففي قصصه عبر كثيرة وعظيمة جدًّا، ومن تلك العبر والدروس المستفادة:

(١). أصول الدين الإسلامي: محمد بن إبراهيم التويجري، دار العاصمة، الرياض، = = السعودية، النشرة الأولى ١٤١٤هـ (ص٤٦-٤٨).

١. الحذر مِن الغلو في الصالحين بجهل وإصرار علىٰ المعصية.

٢. عدم اليأس والصبر علىٰ أداء التكاليف، التي كلف الله بها في مواجهة الأعداء، والصبر علىٰ أذىٰ السفهاء والجهلاء، وعلىٰ صعاب الحياة كافة.

٣. الشجاعة في إبداء الرأي، والغيرة علىٰ الحق، والإصرار علىٰ الدعوة.

٤. أخوة الدين أعظم مِن علاقة النسب والقرابة، وكذلك الجاه والمال والسلطان، بل العبرة بداية ونهاية للعمل الصالح، وتصحيح العلاقة مع الخالق، وغير ذلك لا يجدي عند الله شيئًا.

٥. عظيم فضل الدعاء لرفع البلاء، والنجاة من العذاب.

٦. سنة الله في أهل الطغيان الزوال والبوار، وأن العدوان علىٰ الظالمين والعاقبة للمتقين المؤمنين.